منع الاحتكار وتهيئة المناخ لعدم ظهوره

موقف الإسلام من الاحتكار واضح ومحدد، وهو التحريم المطلق لهذا السلوك الذي يستشري اليوم في الأسواق، فقد أعلن رسول الله ﷺ أن «**مَنْ احْتَكَرَ فَهُوَ خَاطِئٌ**» و«**وَالْمُحْتَكِرُ فِي سُوقِنَا، كَالْمُلْحِدِ فِي كِتَابِ اللَّهِ**» وهذا صريح في تحريم الاحتكار.

ولا يكتفي الإسلام في سياساته بالنهى النظري عن الاحتكار، وإنما يوجب على الدولة أن تتدخل لتزيل آثاره وتخلص السوق منه، ومن هنا فإن الاحتكار - إن ظهر - في السوق الإسلامية فلا يلبس أن يزول ويختفي. ويهمنا أن نقف على مضمون الاحتكار، حتى لا يكون هناك لبس ما، إذ أن مضمون الاحتكار في الفكر الإسلامي يختلف عن مضمونه في الفكر الوضعي، إذ الفكر الوضعي يقف من الاحتكار موقفاً شكلياً يبنيه على حجم سيطرة المشروع على منتج ما، بينما الفكر الإسلامي ينظر إلى أثره ومدى إضراره بالناس قبل أن ينظر في عدد المشروعات، وحجم تعامل كل مشروع، فكثرة المشروعات لا تستلزم نفى الاحتكار، وقلتها لا تستلزم وجوده، وإنما الإضرار بالناس هو جوهر الاحتكار في الفكر الإسلامي. يقول النبي ﷺ: «**مَنْ دَخَلَ فِي سِعْرٍ مِنْ أَسْعَارِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُغْلِيَهُ عَلَيْهِمْ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعَذِّبَهُ فِي عُظْمِ جَهَنَّمَ**» فالدخول في «شيء» أيًّا كان، سلعة أو خدمة برفع سعرها على الناس هو الاحتكار عينه، ولذا فإن الفكر الإسلامي يمنع عقد الاتفاقات بين الممتهنين لمهنة واحدة، ويمنع تواطؤ البائعين على أن لا يبيعوا إلا بسعر معين، ويمنع المشترين من الاشتراك في شيء لا يشتريه غيرهم، حتى لا يضروا بالبائعين.

إن الإسلام وهو يحرم ويجرم الاحتكار بهذه الصورة، ويمنع الاتفاقات التي تقود إليه، قد احتاط للأمر، وبني المجتمع على أسس معينة ومبادئ خاصة من شأنها إذا وجدت، أن تحول دون التمكن من السيطرة على الأسعار. من هذه المبادئ ما قرره من وجوب نشر العلم والمعرفة، إذ الانفراد بالمعرفة هو أهم ما يؤدي إلى الاحتكار، ومنها تكليفه الدولة بإلزام الناس بتطبيق مبادئ الشريعة، ومنها نشر الموقف الإسلامي من الحياة، ودور الإنسان في هذه الدنيا، فظهور الاحتكار في البيئة المسلمة، أمر يناقض الإسلام، ويعبر عن عدم سيطرة قيمه، ويدل على عدم معرفة الناس بهذا الدين الكريم، ولذلك يكون من أهم ما يتخذ لمنع ظهور الاحتكار أن نقوم بنشر الموقف الإسلامي من الحياة التي نحياها، وبيان دور الإنسان فيها وتوضيح الأهداف التي تستحق أن يسعى إليها الإنسان في هذه الدنيا. ذلك أن المحتكر لا يرتكب جريمة الاحتكار إلا عندما يغفل عن حقيقة الحياة، ويجهل دوره فيها، ويضل عن هدفه منها.

وحقيقة الحياة في نظر الإسلام أنها ابتلاء واختبار للإنسان يقول الله تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾[الملك:١، ٢] أما دور الإنسان في هذه الحياة فهو أن يعبد الله تعالى بالسعي وفق ما شرع، فهو لم يخلق إلا لهذا الدور المحدد يقول الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[الذاريات:٥٦-٥٨] أما هدفه من الحياة بناء على حقيقتها السابقة ودوره فيها فلا ينْبغي أن يكون إلا اتخاذها مزرعة أو متجراً للآخرة، يتزود منها بما يبقى معه زاداً إلى حياته الباقية، ويقول الله تعالى ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾

[البقـــرة:١٩٧] ويقـــول ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦] ويقول عن الذين فقهوا دورهم في هذه الحياة، واتخذوها مزرعة للآخرة يقول: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[الروم:٤٤] ويوصى النبي ﷺ المسلمين في شخص أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأن يحكموا السفينة فإن البحر عميق، وأن يكثروا من الزاد لأن السفر طويل، وأن يخلصوا في عملهم فإن الناقد بصير.

وإذا غفل الإنسان عن حقيقة الحياة التي بيناها، فرأى في الحياة ما يغنى عن الآخرة، وظن أن دوره فيها هو أن يجمع المال ويتخذه وثنا يتقرب إليه، وبالتالي جعل هدفه المزيد من المال، فإنه لن يتورع عن ولوج ميدان الاحتكار، يمتص بواسطته دماء من يتعامل معهم، ويكون كما قال النبي ﷺ **«بِئْسَ الْعَبْدُ الْمُحْتَكِرُ، إِنْ أَرْخَصَ اللَّهُ الْأَسْعَارَ حَزِنَ، وَإِنْ أَغْلَاهَا اللَّهُ فَرِحَ»**. ويتعرض لغضب الله تعالى **«فَالْمُحْتَكِرَ مَلْعُونٌ، وَالْجَالِبَ مَرْزُوقٌ»** وللعقوبة الشنيعة في الآخرة **«يُحْشَرُ الْحُكَّارُونَ، وَقَتَلَةُ الْأَنْفُسِ إِلَى جَهَنَّمَ فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ»**، **«ومن دخل فى شئ من أسعار المسلمين يغليه عليهم، كان حقاً أن يقعده بعظم النار يوم القيامة»**.

وعند هذا الحد يتضح لنا أهمية تعريف الإنسان بحقيقة هذه الحياة وبدوره فيها وهدفه منها ويكون ذلك بنشر الموقف الإسلامي الصحيح من الحياة ودور الإنسان فيها، وهدفه الذي ينبغي عليه تحقيقه، وذلك حتى لا تنحرف تصورات الأفراد، وبالتالي ينحرف سلوكهم، إذ أن كل انحراف في سلوكيات الناس، إنما يتبع انحراف تصوراتهم، وانحراف التصورات إنما يعكس تقصير المجتمع ممثلاً في القائمين على الأمر فيه، في تقديم التصور الصحيح، وغرسه في نفوس الناشئة حتى تنشأ سليمة التصورات، وتعيش بالتالي سليمة السلوك. ولو أن مفاهيم الإسلام عن الحياة في

شتى جنباتها، وقيمه تجاه المال كسباً وإنفاقاً، وموقفه من العمل في السوق، وما يعطيه له من وصف سامٍ إذا تم وفق ما شرع الله تعالى، وما يضفيه عليه من بشاعة إذا خرج القائم به عن حدود الله تعالى، لو أن كل ذلك قدم ونشر وغرس في أفئدة الناشئة فشبوا عليه، لكان فيه أكبر صارف عن الاحتكار، وأكبر داع إلى ممارسة العمل في السوق على أنه جهاد في سبيل الله تعالى، ولساد فيها نوع من التعامل يليق بأن يتم بين المسلمين، ذلك التعامل الذي يخلو من الغبن وتعمده، ومن الغش ومحاولته، ومن الكذب والخديعة وممارستها، ومن الأثرة والتفكير فيها، ذلك التعامل الذي يتصف بالنصيحة الصادقة، والصدق والإيثار، فلا يرضى المرء لغيره إلا ما يرضاه لنفسه «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»، ومن ثم فلا مكان في ظل الإسلام للاحتكار. روى عن النبي ﷺ أنه اشترى مملوكاً فكتب في وثيقة الشراء هذا ما اشترى محمد بن عبد الله من العداء بن خالد، اشترى عبداً ـ أو أمة ـ لا داء ولا غليلة ولا خبثة. «بيع المسلم المسلم» والشاهد في هذا الحديث هو قوله عليه الصلاة والسلام «بيع المسلم المسلم»، فهي توحي بانتفاء كل الصفات المذكورة في البيع الذي يمارسه المسلم، أي أن بيع المسلم ينبغي أن تنعكس عليه أخلاقيات وصفات المسلم، ويكون إدراك المسلم لحقيقة إسلامه أكبر دافع له للبعد عن الاحتكار والالتزام بسلوكيات الإسلام وتعاليمه.

وعليه نستطيع أن نقول إن الدولة المسلمة تستطيع أن تقضى على إمكانية ظهور الاحتكار في المجتمع بعملها على نشر موقف الإسلام من الحياة، ودور الإنسان فيها، وهدفه منها. فمعرفة الفرد بذلك هي العنصر الفعال في صرفه عن ممارسة الاحتكار، وجعله لا يقبل ذلك من نفسه، ولا يقبله من غيره، فتتكون جبهة معادية للاحتكار

والمحتكرين، ولن يكون غريباً ـ بل العكس هو الغريب ـ أن يخلو المجتمع الذي يطبق الإسلام من الاحتكار والمحتكرين، وأن يتخذ الناس السوق ميداناً لعبادة الله تعالى، طمعاً في الحصول على أجر المجاهد في سبيل الله كما وعد المصطفى كل من يجتنب الاحتكار ويقدم للناس سلعة أو خدمة نافعة ابتغاء ثواب الله تعالى.